

تفسير البحر المحيط

@ 530 @ عليه القبلة في ليلة متغيمة ، فصلوا بالتحري إلى جهات مختلفة . وقد روي ذلك في حديث عن جابر ، أن ذلك وقع لسرية ، وعن عامر بن ربيعة ، أن ذلك جرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) في السفر ، ولو صح ذلك ، لم يعدل إلى سواه من هذه الأقوال المختلفة المضطربة . وقال النخعي : الآية عامّة ، أينما تولوا في متصرّ فاتكم ومساعيكم . وقيل : نزلت حين صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم) عن البيت . .

وهذه أقوال كثيرة في سبب نزول هذه الآية ، وظاهرها التعارض ، ولا ينبغي أن يقبل منها إلا ما صح ، وقد شحن المفسرون كتبهم بنقلها . وقد صنف الواحدي في ذلك كتاباً قلما يصح فيه شيء ، وكان ينبغي أن لا يشتغل بنقل ذلك إلا ما صح . والذي يظهر أن انتظام هذه الآية بما قبلها هو : أنه لما ذكر منع المساجد من ذكر الله والسعي في تخريبها ، نبه على أن ذلك لا يمنع من أداء الصلوات ، ولا من ذكر الله ، إذ المشرق والمغرب لله تعالى ، فأى جهة أدّى يتم فيها العبادة ، فهي لله يثيب على ذلك ، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد . والمعنى : والله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما . فيكون على حذف مضاف ، أو يكون المعنى : والله المشرق والمغرب وما بينهما ، فيكون على حذف معطوف ، أو اقتصر على ذكرهما تشريفاً لهما ، حيث أضيفا لله ، وإن كانت الأشياء كلها لله ، كما شرف البيت الحرام وغيره من الأماكن بالإضافة إليه تعالى . وهذا كله على تقدير أن يكون المشرق والمغرب أسما مكان . .

وذهب بعض المفسرين إلى أنهما اسما مصدر ، والمعنى أن الله تعالى إشاراً الشمس من مشرقها وإغرابها من مغربها ، فيكونان ، إذ ذاك ، بمعنى الشروق والغروب . ويبعد هذا القول قوله بعد : { فَأَيُّ يَدْمَا تُولُّوا فَتَمَّ وَجْهٌ اللّٰهَ } . وأفرد المشرق والمغرب باعتبار الناحية ، أو باعتبار المصدر الواقع في الناحية . وأما الجمع فباعتبار اختلاف المغارب والمطالع كل يوم . وأما التثنية فباعتبار مشرق الشتاء والصيف ومغربيهما . ومعنى التولية : الاستقبال بالوجه . وقيل : معناها الاستدبار من قولك : وليت عن فلان إذا استدبرته ، فيكون التقدير : فأى جهة وليتم عنها واستقبلتم غيرها فثم وجه الله . وقيل : ليست في الصلاة ، بل هو خطاب للذين يخرّبون المساجد ، أي أينما تولوا هاربين عني فإنني ألظهم . ويقويه قراءة الحسن : فأينما تولوا ، جعله للغائب ، فجرى على قوله : { لَّهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ } ، وعلى قوله : { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } ، فجرت الضمائر على نسق واحد . قال الزمخشري : ففي أي مكان فعلتم التولية ، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : { فَوَلَّوْا وَجْهَكُمْ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ * مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوْهَكُمْ شَطْرَهُ { ، انتهى . فقيد التولية التي هي مطلقة بالتولية التي هي شطر القبلة ، وهو قول حسن . وقد ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى : { وَلِلّٰهِ اَلْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ } مسائل موضوعها علم الفقه منها : من صلى في ظلمة مجتهداً إلى جهة ، ثم تبين أنه صلى لغير القبلة ، ومسألة من صلى على ظهر الدابة فرضاً لمرض أو نفلاً ، ومسألة الصلاة على الميت الغائب ، إذا قلنا نزلت في النجاشي ، وشحن كتابه بذكر هذه المسائل ، وذكر الخلاف فيها ، وبعض دلائلها وموضوعها ، كما ذكرناه هو علم الفقه . { فَثَمَّ } وَجْهٌ اللّٰهُ { ، هذا جواب الشرط ، وهي جملة ابتدائية ، فقيل : معناه فثمَّ قبلة □ ، فيكون الوجه بمعنى الجهة ، وأضيف ذلك إلى □ حيث أمر باستقبالها ، فهي الجهة التي فيها رضا □ تعالى ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل . وقيل : الوجه هنا صلة ، والمعنى فثمَّ □ أي علمه وحكمه . وروي عن ابن عباس ومقاتل : أو عبر عن الذات بالوجه ، كقوله تعالى : { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ } ، { كَلِّمْ شِدْءَ هَالِكٍ اِلَّا } وَجْهَهُ { ، وقيل : المعنى العمل □ ، قاله الفراء ، قال : % (أستغفر □ ذنباً لست محصيه % .

رب العباد إليه الوجه والعمل .
%) .

وقيل : يحتمل أن يراد بالوجه هنا : الجاه ، كما يقال : فلان وجه القوم ، أي موضع شرفهم ، ولفلان وجه عند الناس :